

حوار عربي ملتزم

بقلم أحمد محمد عطية

وظروفها . ان الاديب مقاتل بالكلمات كما كتب المناضل العظيم هوشي منه بطل حرب التحرير الفيتنامية . وامامنا نموذج الالتزام العظيم للاديب الفيتنامي الذي يجمع بين الفكر والسلوك ولا يتوقف عند حدود رفع الشعارات دون عناء التطبيق والموقف العملي كما قدمه لنا كتاب « ادب المقاومة في فيتنام » .

لقد الزمت حياة الحرب الاديب الفيتنامي على تقسيم وقته الى ثلاث فترات : الاولى ، لحفر الخنادق التي يعيش فيها المقاتل والكاتب والانسان الفيتنامي اكثر مما يعيش في المنزل . والفتنة الثانية للزراعة ونتاج الطعام . اما الفترة الثالثة فهي المخصصة لحرفة الادب حيث يمارس الكتابة بعد الفراغ من اقامة المخاض والخنادق اولا ثم زرع الارض والحصول على امدادات الطعام التي قد تمثل مشكلة كبرى بسبب صعوبة توصيلها خلال القصف . لقد امضى كل من « نجوين ترانج سانه » مؤلف قصة (العودة) و (نجوين تشن ترانج) مؤلف قصة « رسالة من قرية ماك » امضيا ستة اشهر في زراعة الارز والبطاطا في الهضاب المرتفعة حيث الارض صالحة والطائرات الاميركية دائمة الاغارة بالقنابل . وهذا ما صوره « نجوين تشن ترانج » في قصته « رسالة من قرية ماك » التي لاقت انتشارا كبيرا بين اهل القرى في الارتفاعات الجبلية الفيتنامية . وهذا « فان منه داو » شاعر امضى الشهور الطويلة لا يدخل معدته سوى النباتات والالياف . والروائي « انه داك » الذي كتب روايته « دون هات » بينما القنابل الاميركية تلك خنادقه . فكل شيء يتنوى بنار المعركة ، وحتى الرسامون يختبئون فوق فروع الاشجار ويرسمون الابطال والمعارك . ويتلقى الادباء والفنانون الفيتناميون رسائل شكر وهدايا من المقاتلين تكريما لاعمالهم الادبية والفنية المساهمة في المعركة . ويصنع المقاتلون هداياهم من حطام الطائرات الاميركية التي تتحول الى آلات موسيقية ومقاعد للادباء والفنانين في فيتنام المناضلة .

وهذه اقصى درجات التزام الاديب بمعركة المصير ، وقد اطلت في ذكر هذه النماذج من فيتنام لوضح الصورة المقابلة لدى الاديب العربي في معركته المصرية ، فال التزام الاديب الفيتنامي يصل به الى وحدة لا تنفصم بين الفكر والفعل والسلوك مع المقاتل الفيتنامي ، بينما يفصل الاديب العربي عن المقاتل العربي بل تفصل الحياة العربية عن ميادين القتال العربية انفصالا شبيها حادا ، ونكاد لا نثر على اثر للوحدة بين الادب والمعركة الا في بعض كتابات

ان الاديب العربي مطالب اليوم بالالتزام اكثر من اي وقت مضى . فالامة العربية تواجه معركة المصير ، وليس بالسلاح وحده تواجه الامم اعداءها وتخوض معاركها المصرية ، ولكن بالكلمة ايضا .

لقد خاضت امتنا العربية عدة حروب دامية مع العسكرية الصهيونية العميلة للامبريالية ، وقد جسدت هذه الحروب حقيقة الصراع العربي الاسرائيلي ، ومع خطورة هذه الحروب وما تحملته شعوب الامة العربية من نتائج مروعة للصراع العربي الاسرائيلي لم يكن الادب العربي على مستوى الحرب والصراع ، ولم تنعكس قضية المصير العربي بحروبها ومعاركها على صفحات الادب العربي . كيف تخوض امة حربيين دامييين في عشر سنوات ، او ثلاث حروب في عشرين سنة ، ويترد شعب باسره طردا جماعيا بالارهاب والدم ليحل محله شعب غريب مهلهل يجمع على دفعات من اطراف العالم - كيف يحدث كل هذا لامة ما دون ان يزلزل ادبها وينتشله من رقده الناعمة التواكلة (1) ؟ وليس صحيحا القول بضرورة مرور فترة كافية على الحرب تسمح للفنان باستيعاب التجربة والتأمل للكتابة ، فاعتقد ان فترة تقرب من ربع قرن على بدء النزاع العربي الاسرائيلي بشكله العربي كافية لتفرز ادب الالتزام بالقضية وبمعركة المصير . لقد اعتاد ادباؤنا على الكتابة السهلة والانماط السهلة ، وحياة المكاتب والصالونات . والا كم كاتبنا من كتاب الحماسة المنبرية وهواة الشعارات ترك حياته الناعمة المطمئنة واحاديث الصالونات والمقاهي والتحق بحياة المناضلين بالدم والنار وجرب الكتابة وسط المعارك ؟ ان اقصى ما فعله كتابنا هو الذهاب في رحلات استعراضية سياحية لجهة القتال في حالات توقف القتال بالطبع . ان تجربة الادب الفيتنامي الملتزم تعلمنا ان الاديب الحقيقي يناضل اولا ثم يكتب ثانيا ، ومن هنا تأتي الكتابة صادقة لانها صادرة عن معاناة حقيقية للحرب ، ولان الالتزام بالقضية وبمعركة المصير التزام بالفكر والسلوك ايضا . ان الادب العربي في معركة المصير ملتزم بان يوحد بين فكره وسلكه وان يناضل اولا ثم يكتب ثانيا كما يفعل زميله الاديب الفيتنامي في معركة المصير الفيتنامية . ان الادب والفن جزء من نضال المقاومة الفيتنامية . ان الادب الفيتنامي لا يكتب عن المعركة ، انه يكتب منها ويكتوي بنارها ، ويخلق الادب والفنان فهما من واقع المعركة

(1) راجع مقال الكاتب : « ومواجهة ادبية ايضا » الاداب

الناسبات . بل ان الاديب الثوري العربي ينفصل سلوكيا تاما عن ممارسة قضيته الثورية ويتوقف نضاله عند طرح الشعارات .
ولم يقع الاديب العربي في هذا الانفصال الشبكي الحاد عن الحركة وقضاياها الا لانه دأب - في معظم الاحيان - على الانفصال عن قضايا الكادحين ، فالاديب العربي حتى اليوم لم يعش قضايا العمال والفلاحين والمقاتلين ، ونجد ادب فلاحين عربيا بمعنى ملاك الارض، وفي النادر بمعنى الفلاحين الاجراء الكادحين ، ولكننا لن نجد ادب عمال او مقاتلين . وفي اغلب الاحوال سنجد الاديب العربي - ابن الطبقة المتوسطة - عاكفا على تقديم ادب الطبقة المتوسطة الى قراء الطبقة المتوسطة . ربما لان الاديب العربي يواجه شعبا تغلب عليه الامية ومجتمعنا يتضائل فيه مستوى التعليم الى حاسوب الرخص الوظيفية والامية الثقافية .

وفي المقابل نجد ادب العدو الاسرائيلي للاسف نموذجا لادب الالتزام بالقضية الصهيونية الاستعمارية ، لقد وضع الادب الصهيوني الفكرة الصهيونية هدفا يلتزم به ابتداء من رواية تيودور هرتزل « الارض القديمة الجديدة » حتى فوز روائي صهيوني - شاموئيل يوسف عجنون - بجائزة نوبل عام ١٩٦٦ الى مواجهة معارك المقاومة وخطف الطائرات حديثا . وعلينا ان نخدع انفسنا ونكرر لعبة النعامة التي الفناها كثيرا . فهذا هو الاب الروحي لاعدائنا هرتزل يقول : « ينبغي ان نتعاطى السياسة حتى في الزواج » .

ان خطورة الادب الصهيوني تتمثل في انه كان بمثابة التخطيط الكامل والارهاصات الحقيقية للدعوة الصهيونية وللحلم الصهيوني العنصري . هذه الدعوة الفنية المتخذة شكل الادب لم تكن الا غلظا للدعوة الاكبر ، الدعوة الصهيونية . بل ان الاديب الفلسطيني غسان كنفاني يذهب في كتابه « في الادب الصهيوني » الى حد اعتبار الصهيونية السياسية نتيجة لارهاصات ادبية صهيونية مبكرة ما لبثت ان اندفعت ، بعد ولادة الصهيونية السياسية ، لتصير جزءا اساسيا منها ، تعمل بانضباط تحت شعاراتها وتوجيه منها ولخدمة اهداف محددة لها سلفا . (راجع دراسة الكاتب « الرواية الصهيونية اعلاميا » الاداب عدد فبراير ١٩٧٢)

ويقوم غسان كنفاني بعمل الادب الصهيوني بانه هو الذي عمل على غسل دماغ العالم وتهيته للاعلام الصهيوني والدعوة الصهيونية والاكاذيب الصهيونية . ولعل اخطر دور للادب الصهيوني هو نجاحه في التسلل الى عقل العرب وفكره حتى لتحتوى التعليقات السياسية الغربية على جمل كاملة منقولة بنصها من الروايات الصهيونية .

ان اليهود يرموننا في ادابهم بعدم المبالاة ، ويرون ان جماهيرنا بعيدة عن الاهتمام بالمواجهة العربية الاسرائيلية ، واخشى ان يكون لتخلف الادب العربي المعاصر عن معاشرة الاحداث والالتزام بالقضية دخل في ذلك .

اننا نواجه شعبا معبا بكافة وسائل التعبئة الثقافية والمادية . نواجه اقل نسبة امية ، واعلى نسبة توزيع في الصحف والكتب . ونواجه جماهيرنا العربية المطحونة داخل الارض المحتلة تحت وطأة الاستعمار الصهيوني الامبريالي وجهوده الثقافية لطمس معالم الثقافة العربية ومحو القومية العربية . ان الجنون التوسعي الذي ينتشي به الشعب في اسرائيل ثمرة للادب الصهيوني الملتزم ، بل انه سند الدعاية الصهيونية في الداخل وفي الخارج . اننا نواجه شعبا يجند رجاله ونسائه من سن المراهقة حتى سن الكهولة . ويوالي الحشد الثقافي والسياسي والعسكري لمواجهةنا دائما في الحرب والسلام . لذا فالى جانب التزامنا السياسي والعسكري يتحتم وجود التزام ادبي ايضا .

واذا كان الادب الصهيوني قد وضع الفكرة الصهيونية هدفا يلتزم به ، فعلى الادب العربي ان يعرف اهداف النضال العربي في التحرير والبناء الاشتراكي ويلتزم بها ، اي يلتزم بالنضال من اجل حرية الوطن والمواطن والنضال الاجتماعي ، واقامة مجتمع عربي اشتراكي موحد ، وتحقيق الحرية بمعانيها السياسية والاجتماعية ، بمعنى منع استغلال الانسان لاخيه الانسان ومنع التسلط والديكتاتورية، وباختصار حرية الفكر والحرية الاجتماعية . فالحرية التي يطالب بها الاديب العربي يجب الا تتوقف عند حدود حرية الفكر وانما يجب ان تمتد ايضا الى الحرية الاجتماعية والى منع الظلم والاستبداد والاستقلال بكل صورها .

كما ان التزام الاديب العربي يعني اقتناعه بمسؤولية الانسان العربي ومقدرته على التحكم في مصيره ومهاجمة كل الدعاوى الرجعية من العدو الظالم والخرافات الى العيب . الم توجه الرجعية العربية هزيمة بونيو بالتفسيرات الخرافية الميثة لقدرة الانسان وبذلك غدا الحل في انتظار معجزة تهبط من السماء ، وليس بالنضال الانساني الصلب ؟

ان التخلي عن الالتزام والاستسلام امام قدر قوي يسلب الانسان كل قدراته قد كانا السبب القوي في تخلف الانسان العربي عن مواجهة واقعه والعمل على تغييره وتقدمه . لقد ارجع الكاتب العربي السوري صدقي اسماعيل - في كتابه « العرب وتجربة المأساة » - بداية عصور الانحطاط العربية الى فقدان الالتزام قائلا : « منذ ان انحسرت موجة التصميم الحر عن الحياة العربية ، بدأت الظروف تقسو على كل موقف ارادي صادق ، وكانت بداية الانحطاط .. وعلى هذا النحو فان مأساة الانحطاط تتمثل في اعفاء الازادة الانسانية من كل التزام . انها تلجئ الافراد والجماعات الى قواقع صلبة من مظاهر التخفي، تمنحها شيئا من الامن والاستقرار ، ولكنها لا تحررها من النزق الدفين الذي يمثله شعور الجميع بانهم ضحايا من دون ذنب او جريرة الا انهم غير قادرين على الرفض والانزواء ... كان الانهيار ثمرة التنكر لمأساة الواقع والتخلي عن كل التزام .. » .

وعلينا ان نفرق بين الالتزام والالزام ، وان نوضح دائما انه ليس ثمة تعارض بين حرية الاديب والتزامه الحر ، وان حرية الاديب جزء من حرية الوطن والمواطن ، وان الالتزام ليس مخيفا الى الدرجة التي يصورها بها اعداء الالتزام الى درجة الاتهام بالعمالة والتبعية والكتابة بموجب القرارات الادارية . واذا كان الالتزام قد صار شعارا يرفعه كل الادياب العرب الآن مثل شعار الحرية ، فعلينا ان نوضح لماذا يلتزم الاديب العربي ، وبماذا يلتزم ، ثم نتطرق الى مناقشة تفصيلية لجوهر الالتزام ووظيفته في الادب والفن وعلاقته بالحرية وبالسلطة وبالتجدد وبالصدق او التبرير وبالفكر والسلوك ، وايضا علاقته بنظرة الفن للفن والفن للشعب او للحياة او للمجتمع ، ولماذا نتحتم على الاديب العربي ان يختار الالتزام طريقا للنضال فسي معركة المصير .

ان نظرية الفن للفن - التي صاحبت ظهور الرأسمالية وقامت كاحتجاج على سطوتها ومحاولتها تحويل الادب والفن الى سلعة - هي التي انتجت فيما بعد كلمة عدم مسؤولية الاديب او الفنان وحولت الحرية الى قيمة عليا مجردة وصورته الاديب كرجل عاجز عن تغيير مجتمعه . وفي المقال نجد ان التزام الاديب نابع من مسؤوليته ، وفي الهزيمة وانام معركة المصير لا يكون الادب ترفا او مجرد تصوير محايد للعالم فحسب بل مسؤولية وتصوير يهدف الى التفسير والثورة والتقدم . والتزام الاديب لم يعد امام شعبه فحسب بل امام العالم بأسره في عصر استحالت فيه العزلة بين المجتمعات بفضل ثورة المواصلات وما كفلته من سرعة الاتصالات بين المجتمعات الانسانية المختلفة . فيجب

وخلال عملية الخلق الفني.

وبما أن قراءة الآخرين جزء أساسي متمم للكتابة والخلق الفني فتعاون المؤلف والقارئ في مجهودهما هو الذي يخرج الى الوجود هذا الأثر الفكري ، وهو النتاج الأدبي المحسوس الخيالي في وقتنا . فلا وجود لفن الا بوساطة الآخرين ومن اجلهم كما كتب سارتر . واذا كان الكاتب لا يكتب لنفسه وانما يكتب لقراء ، وعندما يكتب لهم عن مسائل تشغلهم فهو ملتزم بالتعبير عن هومهم وآمالهم ، والتزامه هنا ينتج من طبيعة العمل الأدبي المكون من كاتب وقارئ .

تلك كلها بديهيات ، وأن كانت في مجتمعنا العربي لا تزال في حاجة الى الإيضاح والتكرار ، فما زال بعض الناس يتصورون الأدب كمتعة وكسليّة وكترف وكحلية ، مع ان اعداء الالتزام لم تصد عداوتهم موجهة الى ضرورة الالتزام من عدمه ، فعندما تعلق كلمة الالتزام فالكلمة ملتزمون ، وعندما تعلق كلمة الحرية ، فالكلمة من انصارها ، مثل كلمة السلام التي أصبحت ستارا لكل اعمال الحرب الامبريالية الهمجية في فيتنام او اعمال العسكرية الصهيونية على ارض العربية . فما من كاتب يعادي الالتزام صراحة ، وحتى اعداء الالتزام يعادون التزاما معينا تحت شعار حرية الاديب كما ان كل النظم تلمسك باعلان الحرية بما في ذلك النظم الفاشيستي والديكتاتورية . فالالتزام امر مفروغ منه ، ولم يعد السؤال الذي يوجه الى الاديب هل هو ملتزم ام غير ملتزم ، بل السؤال المهم الحيوي هو بماذا يلتزم الاديب ، اما لماذا يلتزم فقد اوضحناه لانه مسئول ولانه يكتب للناس ولا يكتمل عمله الا بهم فهو ملتزم بالتعبير عنهم ونقد مجتمعهم وعالمهم واكتشاف طاقات الامل والطاقات الخلاقة فيهم بغية العمل على تقدمهم . والتزام الاديب ليس التزاما مائما بمسائل مطلقة ، ولكنه التزام بمسائل محددة وواضحة . فالاديب العربي ملتزم بالحرية والاشتراكية والوحدة ، ولكن هذه الكلمات العمومية يجب تعديدها وتوضيحها فالحرية التي يلتزم بها الاديب العربي حرية محددة بتحرير الاراضي العربية المحتلة من قبل العسكرية الصهيونية العميلة للامبريالية وعدم الخضوع لسياسة الاحلاف ومناطق النفوذ . وهذه حرية الوطن ، والاديب العربي ملتزم بحرية الفكر والعقيدة والنشر والتعبير والابداع لكتاب ولكل الناس ، فهو ضد كل قيود الرقابة والبيروقراطية وصنوف الارهاب الفكري ، والاديب العربي ملتزم بحرية المواطن العربي الاجتماعية بمنع استغلال الانسان للانسان والضمائم الاجتماعية للعمل .

وهكذا فالحرية التي يلتزم بها الاديب العربي حرية محددة وواضحة ، وليست الحرية الفائمة المعنى المطلقة ، وكذلك الاديب العربي ملتزم بوضوح ببناء مجتمع اشتراكي تؤول فيه الملكية للشعب وبزول فيه التفاوت بين الطبقات بهدف الوصول الى مجتمع لا طبقي ومنع استغلال الراسماليين الماليين والصناعيين وكبار ملاك الاراضي للانسان العربي . والاديب العربي ملتزم بالعمل من اجل ازالة الحواجز المصطنعة بين اجزاء الوطن العربي الواحد وتحطيم الحدود المفروضة على الوطن العربي بغية تمزيقه وتشتيت طاقاته العربية الكبيرة ، من اجل اقامة مجتمع عربي واحد اشتراكي وديمقراطي .

وتحديد التزام الاديب العربي بهذه الاهداف النصالية لس الزاما وليس فرضا فوقيا ولا قرارا سياسيا او اداريا ، وانما ينشئ من ضمير الكاتب العربي التقدمي، تحديدا واضحا لانصار التقدم والحرية وعزلا للرجعيين والتخلفين الذين يعوقون حركة تقدم المجتمع العربي نحو الحرية والاشتراكية والوحدة . ولعل هذا كله نقودنا الى مناقشة الهوة المصطنعة التي داب اعداء الالتزام على ترديدها بانظمة تعارضا بين الحرية والالتزام او بين حرية الاديب والتزامه تحت زعم ان الالتزام بقود الى التنمية الحزبية او السياسية ويهبط بالادب الى حدود الدعاية والمباشرة . وقد استمدت نظرية معاداة الالتزام مبرراتها من وقوع الادب والفن تحت السيطرة الادارية

ان يعيش الاديب العربي قضايا عصره ويقف بجانب حرية الشعوب وضد الامبريالية والاستغلال والحروب الاستعمارية ومع حروب التحرير وقضايا التحرر الوطني والاشتراكية . وبنفس الدرجة عندما تخوض شعوبنا العربية حربها التحريرية ومركتها المصيرية فيجب ان نمزق كل المواقف الرجعية والتقاليد البالية من طريقها . يجب ان يعي الاديب العربي انه يواجه مجتمعا اميا متخلفا مشبعا بالخرافات والاساطير ، يواجه مجتمعا مختلا مهزوما عسكريا ، يجب ان لا يتجاهل هذه الحقائق المؤلمة ، فمن طريق تصويرها ونقدتها يفتح طريق المستقبل المقدم بالامسال في بناء مجتمع عربي اشتراكي واحد وحر . فالفن ليس مرآة بليدة لمكس الواقع والا فقد الفن ضرورة وجوده ، ولكنه شيء اساسي في اعادة خلق الواقع وتشكيله من جديد .

ولقد وفي الانسان الاول دور الفن والادب ومستوليتهما في بناء حياته ومجتمعه . فمذ الفجر الاول للانسانية استخدم الانسان الفن لتغيير العالم والتقدم به ، من تطوير لادوات العمل الى التنكر السي اغنيات العمل الجماعية ، عرف الانسان الاول ضرورة الفن ووظيفته في تقدم المجتمع الانساني والسيطرة على الطبيعة ، فقد كانت هذه الاشكال الاولى من الادب والفن ضرورة وليس مجرد متعة او تسلية ، فرفض الانسان الاول قبل الصيد كان مقدمة ضرورية للشعور بالقسوة ورسم الحيوان على الجدران كان وسيلة للتفوق على الحيوان والسيطرة عليه . . وما الى ذلك من ضروب الادب والفن الاولى التي كانت فنونا جماعية يشارك فيها الجميع قبيل الخروج الى عالم الطبقات . وعندما انتقل المجتمع الى الطبقة بدأ الفن يعمل لصالح الطبقة المسيطرة وطبقا لفكرها وايدولوجيتها ، كما تطور الفن من الجماعية الى الفردية تبعا لتطور اشكال المجتمع الانساني .

فالفن ملتزم منذ البدايات الاولى للانسانية وغير عصور التاريخ . ويؤكد « ارنولد هاوزر » مؤلف كتاب « الفن والمجتمع » ان التاريخ الاجتماعي للفن يؤكد - وهذا هو التأكيد الوحيد الذي يستطيع ان يقدم الدليل عليه - ان الاشكال الفنية ليست مجرد اشكال نابعة من الوعي الفردي يحددها المجتمع . ولنا حاجة الى اعادة التأكيد على دور الادب في تطوير المجتمعات والثورات وليست بعيدة تجربة الادب الروسي العظيم في نقد المجتمع الروسي المتخلف والتنبؤ بالثورة وتوير الجماهير حتى تحققت ثورة اكتوبر الاشتراكية .

فدور الادب الحقيقي هو النقد والمعارضة والتنبؤ والعمل على تغيير المجتمع والعالم والتقدم بهما عن طريق اعادة خلقهما فنيا . فنحن نكتب بقصد التغيير والتأثير في التلقين ، والا لماذا نكتب ونخطط لعملنا الادبي ؟ ليس ذلك طبعا لمجرد الدققة والتعبير عن الانفعال او التامل والتأمل والانفعال والتعبير عنهما لا ياتي الا في كلمات قصيرة . ولكن عندما اكتب بايضاح وتوسع فانما ياتي الايضاح من الرغبة في الاضفاء الى الناس بقصد تغييرهم نحو الافضل . وعندما يلجأ الكاتب الى تصوير العالم وكشفه وتعرته فهو انما يفعل ذلك بهدف تغييره نحو عالم افضل . وهو حتى عندما يصور المجتمع فلن يكون مجرد ناقل محايد ، ولكن لا بد ان تنعكس ذاتيته وفرديته فلا بد ان يتحاز ولا حياد . وحتى في ميدان العواطف كالحب يستطيع الكاتب ان يؤثر في الناس ويحرك فيهم طاقات الحب الكامنة فيهم او يلفت نظرهم الى الطابع الطبقي للحب في مجتمع طبقي بهدف القضاء عليه والعمل على ازدهار الحب واطلاق طاقاته حرة من كل قيد . فللكاتب هدف من كتابته ليس لمجرد التسلية وشغل الفراغ فهو باقدامه على الكتابة للناس وتصميمه الذهني والفكري المسبقين وبايضاحه المسهب انما يفعل كل هذا من اجل هدف ورسالة فالكاتب يضع الانسان امام مسؤولياته ليحركه ويغيره اذ لا يكتب الكاتب لنفسه - كما كتبت سارتر في « ما الادب » لان صلة الكاتب بالعمل الفني معلومة بمجرد اتمامه . وتأتي صلته الاساسية من اكتشافه الاول لبدور العمل الفني

ملتزمون . ومهما حاولوا الدعوة الى الهروب من الواقع فهم واقعيون بشكل او بآخر . وان يكون الاديب كذلك معناه ان يبدأ باختيـسار موضوعاته بحرية ، فالحرية هي نقطة البداية امام كل كاتب سواء كان ملتزما ام غير ملتزم .

ان الحرية شرط كل خلق فني . فالكتابة اختيار حر وانتقاء حر من الاديب واصطفاء منه للواقع وكي يصطفى الكاتب عالمه من جزئيات العالم الواقع ، ينبغي ان يصدر في ذلك عن حرية كاملة . ان الاديب الحر يجذب القارئ الحر ، فالكتاب حر في انتقاء موضوعاته ، وكذلك القارئ حر في انتقاء كتبه ، ولان الكتابة عمل مشترك بين الكاتب والقارئ فلن يقدم القارئ بحريته على قراءة عمل كاتب ما لم يكن عمل الكاتب صادرا عن حريته واختياره ومن خلال تجاربه الذاتية ورواه الخاصة . فالحرية هي العامل الاساسي والجوهري في الخلق الفني وفي التثوق والتلقي من القارئ المشارك في عملية الخلق . واذا كان هدف الفن هو اعادة خلق العالم من اجل تفييسره والتقدم به ، فكيف يتجاهل الاديب العربي عالمه المحتل المتخلف المليء بالمظالم والمآسي والهجوم ، وكيف يتسبب ثقة فارئه اذا فعل ذلك ، بل كيف يطمع الاديب الى تحقيق حرية الانسان والمجتمع والعالم بأسره اذا لم يكن هو نفسه حرا وكذلك اذا لم يكن عمله الفني صادرا عن حرية ؟ واذا كانت الحرية مطلوبة لكل الناس ولكل المهن ، فاولى بها ان تكون ضرورة للكاتب كي يختار ويخلق ويبدع . وكما ان الكتابة عمل يقدم عليه الكاتب باختياره الحر ، كذلك الالتزام مصدره الحرية . ولكن عندما يقرر الكاتب الكتابة فانه يكتب الى جمهور له مطالب ومشاكل وعليه ان يلتزم بها ليصل اليهم . والحرية المطلوبة للكاتب هي حرية النقصد الذاتي . ولان الكاتب لا يعمل لدى احد ، وعمله غير منظور وغير يومي وغير داخل في علاقات الانتاج ، لكل ذلك فهو حر يشد الحرية . فالحرية شرط اساسي ليتمكن الاديب من الابداع والخلق . وفي المجتمعات الديكتاتورية والفاشية التي حرم فيها الاديب من حريته لم ينتج ادب جيد كما حدث للادب في ظل الستالينية والنازية والفاشية .

فالطلب هو الالتزام الحر ، وليس الالتزام او التبعة المباشرة لرئيس دولة او حزب او مسؤول سياسي . الاديب العربي الملتزم ينطلق من مواقف اساسية يتبناها كل اديب تقدمي ، وليس معنى التزام الاديب العربي بقضايا مجتمعه ، واهمها قضية التحرير ومعركة المصير ، ليس معنى هذا ان يتحول عمل الاديب الى نوع من الخطب او المنشورات السياسية او الاعمال الفجة المباشرة واسلوب التقارير الجافة . فكل عمل ادبي يتكون من شكل ومضمون وهما شقان مرتبطان غير منفصلين ، ولكن دأب النقاد على فصلهما للاضاح . واذا لم يستكمل العمل الادبي في شكل فني جيد وممتع دون مباشرة او صراخ دعائي مجوج فان صفة العمل الادبي تسقط عن هذه الاعمال لتتحول الى الوثائق او الخطب او الدعاية السياسية المباشرة . وبنفس الدرجة اذا اقتصر العمل الادبي على الاهتمام بالشكل وتجديده دون تقديم رؤية جديدة في الموضوع اصبح مجرد حذقة وعملا شكليسا خاليا من الحياة ، فالضميمون هو العنصر الاساسي في الفن لانه هو الذي يعطي الفن معنى ، ولكن الشكل مهم ايضا لانه هو الذي يعطي العمل الفني صفته كفن .

ليس الاديب العربي مطالبا ، في سبيل لعبة التجديد ، بنقل اشكال غريبة عن المجتمع العربي وتمثل حضارة ومازق فكرية مختلفة عن تلك التي يعيشها الانسان العربي . فعلى الاديب العربي ان يتجنب السعي الى الجديد من اجل الجديد ومن اجل الظهور بمظهر الحدائة ، ولقد نشأت في مصر مدرسة ادبية جديدة تسمى الى اسنيسراد

والحرية السوفياتية خلال فترة عبادة الفرد الستالينية . غير ان هذا كله قد شجب بالمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي وانتهى الى غير رجعة . فالالتزام الذي يختاره الاديب العربي ليس الزاما وليس بدعة ، وفي تاريخ الادب العربي القديم والحديث نماذج عظيمة لالتزام الاديب العربي فكرا وسلوكا ، والا بماذا نصف شعر عنتره بن شداد وسلوكه ومعاركه ؟ الم يستمد الشاعر العربي القديم عنتره صفة البطولة من التزامه المادي والادبي بمعاركه ، معارك القبيلة والناس والدفاع عنهم ؟ وفي الادب العربي الحديث مثل واضح من مصر في الاديب العربي المصري عبدالله النديم شاعر الثورة العربية واديبها ، الم يتسبب عبدالله النديم بطولته من التزامه الواضح الصريح بقضايا الشعب العربي في مصر وبالالتزام بالثورة العربية العظيمة فكرا وسلوكا ؟ وقد وجد الكاتب العربي السوري صدقي اسماعيل في تجربتي التنبي والمعري نموذجين ، لالتزام الاديب العربي القديم بقوله - في كتابه « العرب وتجربة المساة » - « ان مشكلية الالتزام امام المساة هي نقطة البداية في فلسفة المعري - كما كانت في تجربة التنبي - فقد نصب نفسه ناقدا للعصر كله ، منذرعا بالبصيرة الواعية التي لا تكتفي بادانة الواقع المثقل بالمتناقضات ، بل تجد في العقل المنحدر دعامة اولى لكل انبعاث في حياة القيم المنهارة ، غير ان هذه الدعامة لم تأخذ شكلها الايجابي الذي يمكن ان يمهّد لتكوين عقلية جديدة تتبين الانهيار على حقيقته ، بل اخذت اكثر الاشكال السلبية غموضا وياسا .

وما اكثر الامثلة على التزام الاديب العربي الحر على مر العصور. ان الالتزام رؤية جيدة للواقع وتنبؤ بالمستقبل ، فلا بد للفنان من وجهة نظر محددة يصدر عنها . مثلا كيف يمكن ان يكتب الاديب متجاهلا لتواجده في مجتمع محتل متخلف صمم على اتخاذ طريق الاشتراكية ؟ كيف لا يلتزم الاديب العربي بجماهيره وبقضية الاشتراكية ؟ والتزامه بقضية الاشتراكية ليس بمعنى فرض التغني بمشروعات السنوات الخمس فرضا خارجيا ولكن بمعنى انه لا بد ان يصدر من موقف اشتراكي ورؤية اشتراكية واضحة نابذة من ايمان حقيقي وحر بقضية الاشتراكية وقضايا الجماهير . فليس معنى الالتزام بقضايا الاشتراكية هو الالتزام الضيق براء حزبية او قرارات سياسية . ولكن المهم ان يكون للفنان موقف واضح ينطلق منه مع قوى التقدم وضد التخلف والرجعية ، فالفنان ناقد ومحتج ومعارض بالضرورة وليس مصفقا او مبررا ، ومن هنا تلزمه حرية الفكر والابداع والنقد . وهذا نموذج حي لالتزام الاديب العربي المصري الصادق نجيب محفوظ . لقد سألت نجيب محفوظ سؤالا واضحا محددا لاتيين موقفه من الالتزام : عندما تكتب هل تضع في ذهنك فكرة سياسية او ايدولوجية لتعبر عنها بالفن ، خاصة انك كاتب سياسي بالدرجة الاولى ؟ فاجابني نجيب محفوظ بصراحتة الموهودة : الايدولوجية ليست في عقلي ولكنها في قلبي وانا لا اضعها ولا احركها قبل كتابة قصة او رواية لانها تعيش معي حتى في نومي . وانا قد اكون مهتما بموقف او انسان او مكان ثم تانسسي الايدولوجية لتلون الموضوع كله بدون وعي مني . فلا املك ان اكون غير ايدولوجي ولكني لا افكر فيها . فلا اكتب عن الايدولوجية ويصح ان اكتب عن قصة حب ولكن الايدولوجية تعمل في الداخيل وفي الخفاء . (راجع مقابلة الكاتب مع نجيب محفوظ - مجلة الموقف الادبي العدد السابع اكتوبر ١٩٧١) وهذا هو الالتزام الحر النابع من ضمير الكاتب ومن امتناعه ومن احتفائه لقضايا الجماهير والتزامه بها ، فهو موقف الاديب الملتزم يأتي من التصاقه بالجماهير وبقضاياها واهدافها وليس بالعلزلة عنها .

نقول ان كل كاتب ملتزم بشكل او بآخر ، حتى اعداء الالتزام

الموهبة والافتقار والشكل الفني المتمتع . ان الجمال في العمل الادبي لا يعني اغماض العين عن السلبيات والتناقضات داخل المجتمع العربي ، ان تصوير القبح في الواقع عمل جميل ايضا وضروري لتغييره ، لان الجمال هو الصدق وتصوير القبح يعني لفت النظر اليه ونقده والدعوة الى محاربتهم والتطلع الى خلق مجتمع جميل حقا . فالاديب العربي الملتزم مطالب دائما بالنقد وخاصة في فترة تحول المجتمع العربي الى الاشتراكية ، والاديب العربي الملتزم مطالب بالنقد الذاتي حتى لا يتحول الى التحجر ويصبح مجرد مصفق او مهمل او مبرر . كما ان الالتزام لا يعني تجاهل شخصية الاديب العربي وفرديته ورؤاه الذاتية ، ان الاساس الحقيقي لكل فن هو الصدور من رؤيا ذاتية ، والفنان الملتزم هو الذي ينبع رؤاه الذاتية من ضميره الملتزم وتألف ذاتيته بموضوعيته ، وموهبته الخاصة بتصوره الموضوعي . فليس هناك خوف من ان يجور الالتزام على حرية الابداع الفني للاديب العربي وعلى فرديته ورؤاه الخاصة . والاديب العربي الملتزم له حرية اختيار المذهب الادبي والفني الذي يتفق مع رؤاه الفنية فلا قسر ولا اجبار على مذهب دون غيره من المذاهب . ولكن الاديب العربي الملتزم مطالب حقا بخلق ادب قومي عربي يفترق من التراث الايجابي والعلمي والعقلاني ويستبعد منه التخلف والمشهود ويرنو الى آداب العالم ودون ان ينقل عنها او ينهر بها ، بل يجب ان يوجه النقد الى التراث والى الثقافة العالمية ، بل يجب ان تكون للاديب العربي الملتزم نظرة نقدية علمية فلا يستغنى عن التقدمي في التراث وفي الادب العالمي القديم والمعاصر .

الاديب العربي الملتزم مطالب ايضا بالتجديد وتطوير الشكل تبعا للتطور في الموضوع والتفسيرات اللازمة في تبنى موضوعات جديدة او وجهات نظر جديدة . فالشكل والموضوع متضامنان وضروريان لتقديم كل ادب جديد وكل رؤية جديدة ، ولا يمكن فرض الاشكال القديمة على الموضوعات الجديدة . ولكن التجديد الملتزم يختلف عن التجديد الزائف القائم على النقل والذي يتجاهل ضرورة ان يتبع الشكل الجديد المضمون الجديد ، فالتجديد يتم في المضمون ويتبعه ويلزمه التجديد في الشكل وليس التجديد بهدف الظهور بمظهر الحدائثة والهروب من مواجهة الواقع . فكلما تجدد المجتمع ، تجدد الادب .

ومن ثم فالاديب العربي الملتزم بالتعبير عن المجتمع والتقدم به ، ملتزم ايضا بابتكار اشكال جديدة تناسب المصامين الاجتماعية الجديدة . اما اعداء الالتزام فانهم يتخلفون عن عملية التقدم عجزا عن ابتكار اشكال جديدة ويتصورون ان الادب يتدهور لانه يتناول الحياة اليومية والصراعات داخل المجتمع وما الى ذلك من المسائل المادية ، وهما وعجزا وجريا وراء سراب المعاني الروحية وجمالية اللغة والشكل . ان هؤلاء الذين ينبرون من قضايا المجتمع كمسائل دنيا هم اعداء الالتزام ، فليس الادب ثروة وجملا مجموعة وحلية للزينة . اذ المطلوب في رأي اعداء الالتزام هو الاعتدال وطرق الموضوعات القديمة التي لا خلاف عليها ، اي باختصار الصمت ازاء كل جديد وامام ضرورات التقدم والعمل من اجل المستقبل .

ان آدابنا العربية تتحمل نصيبها من المسؤولية ازاء كارثة هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ، فقد استمرنا جميعا لعبة النعاسية والازدواج في الفكر والسلوك ، والكتابة بآراء مالوفة ومرضي عنها من الانظمة الحاكمة والاحتفاظ بآرائنا الخاصة والحقيقية للهمسات

الاشكال الغربية الجديدة ونقلها اعتسافا وقسرا الى الادب العربي في مصر ، واعتقد انها فشلت تماما في هذا العمل ، ولم تقدم الا ادب الهديان والفتيان والانتحار . ان الجديد في الشكل يجب ان ينبع من طبيعة الموضوع ، فلكل مضمون شكله الخاص ولكل فترة حضارية شكلها الخاص ايضا ، وليس دور الاديب العربي ان يقلد كالقرود ، ان الان روب جريه مثلا يعيش حضارة الصواريخ والكمبيوتر ، فاين نحن منهم ؟ ان الاديب العربي مطالب بالصدق مع مشاكل مجتمعه وعدم الهروب منها الى استيراد الاشكال الاجنبية والاجواء الاجنبية . فتطور الشكل في الادب والفن مرتبط بكل تطور في المجتمع ، وكثيرا ما يكون الشكل الجديد تعبيرا او تنبؤا بتطور جديد في المجتمع ، ومن هنا فان الاديب العربي الملتزم هو وحده القادر على التجديد في الشكل التابع من الالتحام بالموضوع وصدق الرؤية ، فالشكل الجديد استجابة ذاتية لمستقبل المجتمع وضرورات التغيير ، ولا يقف في وجه التجديد الا المتخلفون او المتحجرون والرجعيون الذين يحولون الاشكال الادبية والموضوعات الادبية الى اعمال صخرية جامدة ، وتظل الاشكال راسخة ومقدسة حتى يأتي تطور جديد في الموضوع يستلزم تحطيم الشكل القديم وابتكار شكل جديد يتفق مع المضمون الاجتماعي الجديد ، وليست ببعيدة قضية الشعر العربي الحديث ومظاهرة العداة التي وجهت ضده حتى وصل الامر الى اتهام الشعراء الجديدين بالخطيئة والزندقة .

والاديب العربي الملتزم يعي جيدا انه لا يكتب لنفسه والا لاحتفظ بكتابه لنفسه ، انه يكتب الى جماهيره ، ومن ثم فعليه تجنب الفموض ما لم تفرضه طبيعة الرؤى الجديدة والاعمال التجريبية والطليعية - فالوضوح هو شرط كل ادب جيد ، وهو وسيلة الكاتب لجذب الجماهير الى الادب الصحيح الملتزم ، والوضوح لا يعني الهبوط الى مستوى التبسيط والتلفيق والتعليم ، فالالتزام الاجتماعي للاديب لا يعني الخضوع للنوع السائد او ان يكتب وفقا للمراسم والقرارات الادارية كتابه ومبرر ، وانما يعني انه لا يعمل في فراغ وانه ملتزم بالمجتمع الذي ينتج من اجله كل ادب وفنان واع بمسئوليته والتزامه . والاديب العربي الملتزم ضد تحويل الادب الى عمل من اعمال التسلية وشغل الفراغ والكسل الذهني وايضا ضد تحويل الادب الى السعي الدعابة والتبرير . فالادب الملتزم ليس هو الادب الممل او الخطابي او التقريبي ، ولكنه الادب المتمتع المتمكن من الوصول الى الجماهير العبر عنها والمبر عن المجتمع والتنبؤ والتشوق لآمال المستقبل . ولا يعني الالتزام نقل صورة احادية الجانب للواقع ، بل نقل الواقع بصدق بخطه وصوابه ، بسلوك الشخصية وآرائها ، وايضا بالبعد عن الصياغة الفكرية المجردة للامع الادبية بل من خلال عدم المباشرة والسلوك والوقف . فلا بد من تطابق التعميم الفكري والمعانة الشخصية . فمهمة الشخصية الادبية الناجحة تجسيد القضايا العامة من خلال امتزاج العام الخاص في سلوك الشخصية ، وامتزاج الملامح الفردية للبطل الادبي بالمسائل الموضوعية العامة ، كما اوضح لوكاش في كتابه « دراسات في الواقعية » وان يعيش الشخص الادبي امام عينينا نفسها اشد قضايا العصر نجربا وكانها قضايانا الفردية الخاصة وكانها مسألة حياة او موت .

ان يقدم الادب والفن اعمالا واقعية وسياسية امر ضروري ، لان السياسة جزء اساسي من الواقع . ولا يعني هذا ان يقدم الادب كتابات سياسية مباشرة يضمف فيها العمدار الفني للادب والفن ، فان هذا ابعد ما يكون عن الادب الحقيقي . فالادب الحقيقي هو الادب المستوفي لشروطه الجمالية والذي يعيش الواقع معايشة فنية وبيدع على اساس

قرارة الجسد العربي

من يعرا الوطن العربي في جسدي ، يطالع للخيول
غاراتها ، ويعيد ما جنت الفصول على الفصول
ويطالع الاحباب بين منازل المدن الشهيدة
حجرية الذكرى ، ويسمع ما تنبات السيول
في ذلة الفرقى وفي حقل التماسيح الجديدة
وعلى سفانها وفي مقل الجنود آلتاهين
يتبعثرون على ندائك آه يا وطني السجن
بين المسافات القريبة والنداءات البعيدة
يتفهمون وخلف صوتك يستقر الانبياء
ويعلقون الصيف فوق مشاجب رحل الشتاء
عنها واورثها انتظارك غربة الصمت المباح
ويظل يطرحك انتظارك فوق اسمال القصيدة
واظل أصلب فيك ، ابعت والعدارى في البكاء
مطروحة وارك صوتي في المراسيم التليدة

آواه يا وطني وبين يديك يكتمني اغترابي
وبدهشة الاصوات ، تهرب من فمي ، اجد اقترابي
وبصمتك المحمور في الذكرى وغابات الدهول
وبجوعك المرئي تعتصم المواسم في نياي
وتقيم في عيني ، يعتسف الصدى لون الحقول
واقيم بين الجوع ، بين دماء اهلي والمسيرة
واقيم في جرحي على مدن تعيش بلا ضحايا
واقيم حتى تستقل خطاي صوتك والصبايا
واقيم في عطشي ، وتأتي بالنبوءة والطريق .
القالك يا وطني وتأتي الضحايا بالكآبه
خبزا وعاصفة ، وتأتيني القوافل بالغرابه
مطرا ، ويأتي الجذر ، المس في يدي وطني العريق

بغداد

رؤاى ابراهيم حسن

المراجع

- (1) ادب المقاومة في فيتنام ، تران دنه عن واخرون ترجمه غالى شكري،
نشر وزارة الثقافة السورية ، دمشق ١٩٦٩ .
- (2) يوميات هرتزل - ترجمة هلدأ صايغ - نشر مركز الابحاث الفلسطينية
بيروت ١٩٦٨ .
- (3) في الادب الصهيوني - غسان كنفاني - دراسات فلسطينية العدد
(٢٢) - نشر مركز الابحاث الفلسطينية بيروت ١٩٦٧ .
- (4) العرب وتجربة المأساة - صدقي اسماعيل - نشر دار الطليعة
بيروت الطبعة الاولى ١٩٦٢ .
- (5) ضرورة الفن - ارنست فيشر - ترجمة اسعد حليم - نشر الهيئة
المصرية العامة للتأليف والنشر القاهرة ١٩٧١ .
- (6) الفن والمجتمع عبر التاريخ - ارنولد هاوزر - ترجمة الدكتور فؤاد
زكريا ، نشر الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧١ .
- (7) ما الادب - جان بول سارتر - ترجمة الدكتور محمد غنيمي هلال -
نشر مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦١ .
- (8) الرؤيا الابداعية - بول فاليري واخرون - ترجمة اسعد حليم -
الالف كتاب العدد ٥٨٨ نشر في مكتبة نهضة مصر القاهرة ١٩٦٦ .
- (9) الجمال في تفسيره الماركسي - أ.أ. بلاشوف واخرون - ترجمة
يوسف الحلاق ، نشر وزارة الثقافة السورية - دمشق ١٩٦٨ .
- (10) علم الادب السوفياتي - ب . غوريلى - ترجمة جلال فساروق
الشريف - نشر دار الصحافة - دمشق ١٩٦٤ .
- (11) دراسات في الواقعية - جورج لوكاش - ترجمة الدكتور نايف بلوز،
نشر وزارة الثقافة السورية - دمشق ١٩٧٠ .
- (12) الاشتراكية والادب - الدكتور لويس عوض - كتاب الهلال الطبعة
الثانية ١٩٦٨ .

والحجرات المقلقة . وباضعف الامور لعد صمت الاديب العربي عما
يجري في المجتمع العربي من خداع وديماجوجية وشارك الاديب العربي
بصمته في خداع الجماهير العربية التي ركبها الزهو الفارغ والغرور
الكاذب والرؤية الساذجة حتى افادت الجماهير العربية والادباء
العرب ايضا على هول الهزيمة . فالاديب العربي الملتزم مسئول ايضا
عن صمته ، فمن واجبه ان يكتب وان يحتج وان يناضل ، وان يوحد
بين فكره وسلوكه ، الاديب العربي مطالب اليوم بالالتزام اكثر من اي
يوم مضى ، لان الامة العربية تواجه ممرتها المصيرية ، وليس اقوى من
الالتزام طريقا للادب العربي في مواجهة الشجاعة مع النفس والالتزام
الصادق بالجماهير ، والشجاعة في تبني مواقفها وفي مصارحتها ،
وفي شحذ روح المقاومة والنضال . ومن هنا تأتي اهمية الادب في
ازالة الافكار المتخلفة المعارضة مع النضال العربي من اجل الحرية
والاشتراكية والوحدة ، وايضا في محاربة كل تشويه لاهتمامات القارىء
العربي وتحريفها الى اهتمامات مفاخرة كالرياضة التي لعبت دورا
اساسيا في صرف المواطن العربي عن قضايا الحقيقة وتحولت الى
نوع من العصبية والقبلية والمفاخرة وكالاسفاف في النشر بالصحف
العربية وتحولها الى صحف وفصائح للاخبار الشخصية والعلاقات
المنحلة لنجوم السينما والجريمة (كجذب انتباه القارىء العربي الى
نماذج غريبة من الناس في البلاد الاستعمارية مثل اونايسيس وجاكين
وساني ومانسون ..) الى غير ذلك من مظاهر الانحراف باهتمامات
القارىء العربي وتحويله عن معركة المصير . فالاديب العربي ملتزم ايضا
بمحاربة الفكر الرجعي والجمود الرجعي والمثل والنماذج الرجعية
والسلوك البودجوازي والراسمالي . ذلك طريق الاديب العربي للحرية
والالتزام . وهكذا فالالتزام ليس فقط لصالح الانسان العربي وحرية،
ولكنه ايضا لصالح الاديب العربي في الوصول الى الجماهير العربية
وتجديد الشكل من اجل تقديم ادب عربي جديد شكلا ومضمونا .

أحمد محمد عطية

القاهرة